عظة أحد الابن الشاطر
في كنيسة القديسة كاترين
في ٣ آذار ٢٠٠٢

باسم الآب والابن والروح القدس الإله الواحد آمين.

يا أحبة، نحن في موسم الزرع، في موسم التوبة، في موسم الرجوع إلى الرب حيث الله يدعونا إلى أن نأتي إليه حيث الغبطة والخير وكل صلاح. حيث الله يقول لنا كل ما تشتهي لخيرك موجود وإن لم تأتي فأنت في مكان بعيد جداً عما هو خير، عما هو صالح، عما هو معط للغبطة. في الأحد الماضي، تكلمنا، سمعنا المقطع الإنجيلي الذي يتكلم عن الفريسي والعشار.

الفريسي الذي كان يقوم بكل ما ينبغي أن يقوم به من واجبات، طائعاً للشريعة، فاعلاً بها ولكنه كان يتكبر ويتفاخر على كل إنسان آخر، جاعلاً من نفسه مثالاً للبر وللقداسة والتقوى أي مدّعياً بأن إن شاء أحد أن يكون إنساناً صالحاً فليتشبّه به. وهناك العشار الذي كان يفعل السيئات ويخطئ تجاه أخوته، أتى إلى الرب كما سمعنا تائباً.

أما الفريسي فكان يعتقد أنه يفعل ما يفعل، أصبح من المفروض على الله أن يقبله في ملكوته. الفريسي خاطئ والعشار كذلك. أي في الأحد الماضي أعطانا الرب مثلاً عن إنسانين أخطآ. واحد بتكبره والآخر بالإساءة إلى أخيه، بسرقته له. اليوم يعطينا الرب مثلاً عن أب، عن إنسان له ابنان. نسمي هذا المثل بمثل ابن الضال ولكن نستطيع لا بل يستحق هذا المثل أن يسمى بمثل الأب الرحوم، الحنون والمحب.

إذا قرأنا بتمعّن، وبتأمل الإنجيل، نجد بأن الأب لم يخسر ابنه الأصغر بل خسر أيضاً ابنه الأكبر، لأنكم إذا رأيتم صورة الابن الأكبر المتكبر، المتعجرف، الباغض لأخيه، الذي لم يفرح برجوع أخيه الغائب، هذا الابن ليس بابن. فالأب كان يتألم في أعماقه بسبب فَقْد ابنه الأول الصغير وبفَقْد ابنه الأكبر الذي لك يكن يسكن في المحبة والرحمة والرأفة. الابن الكبير قال له: أنا فعلت، أنا خدمت، أنا أطعت. كل هذه الأمور باطلة إن لم تكن المحبة الحاضنة لكل هذه الأفعال.

يقول أحدهم، أحد القديسين: أحبب وافعل ما تشاء. إن أحببت لا تفعل إلا الخير. إذاً خسر هذا الأب ولدين. الأول أخطأ حيث بذّر كالنعم التي أعطاها إياها الأب والآخر بذّر كل التربية التي أحاط بها هذا الأب ابنه الأكبر. إنه دون تربية لأنه لا يحب أخاه ولم يفرح برجوعه. كان فرح ببعد أخاه، لأنه كان يأخذ كل الغلّة، كل الميراث الباقي. كم من الناس

تكره أخوتها بسبب الميراث؟ كم من الناس تكره أهلها بسبب تقسيمهم للميراث. ينسون الله، ينسون المحبة والأخوة ويريدون العيش بالمال إلى الأبدية. تعلمون بأن رائحة قلوبهم تكون كريهة بهذا التصرف ونكتشف أشياء لم نكن نعرفها لأنهم كانوا مجمدين بجمال هذه الدنيا الفاني، ونكشف مدى رائحتهم الكريهة. يقاتل أخاه وجميع الأهل كيف أن حصته لم تكن بقدر حصتهم، كما يتمنى لهم الموت ليبقى له كل شيء. هكذا كان الأخ الكبير.

إذاً الأصغر لم يكن خاطئ فقط لوحده. قال له: طاش لأنه عاشر أناس طائشين، فاسدين، وسخين. قال له: يا أبي لا يكون لي شيء بعد طول عمر؟ قد يكون تصرف بهذا اللطف ليأخذ المال. الله يطوّل بعمرك. لا يحق لي أنا الآن، ممكن أنني أكذب عليه وأفعل شيء ما كتجارة أو صناعة. فأعطني حصتي حتى أرتّب مستقبلي. لقد احتال عليه وأخذ نصيبه.

كان موقف الأب، كأي أب محبّ. أنا أظن بأن الأب ذو خبرة والذي يساعده الله إذا كان محب. فالمحبة تعلم، كان يعلم بأن ابنه يحتال عليه. كان يعلم بأنه يخترع قصص. لكنه أراد أن يظهر لابنه، أنه يا ابني ما تريده أفعله لك حتى أبرهن لك عن محبتي، ولن أدينك الآن، أي لن أجعل أفكاري تدينك ولا نواياي أيضاً ولا أن أحكم عليك. الله يكون معك. ذهب الولد الأصغر ومعه المال، ففرح به. بدأ يبذرهم في كل اتجاه حتى أفلس. لأن مال الشر، الذي يستعمل بالشر لا يدوم بالجيبة ولا يعطي بركة. مهما استعملنا المال للشر، حتى نخدمه، هذا لا يقودنا فقط للإفلاس وإنما أيضاً يجعلنا كالخنازير ونأكل الخروب، ونمشي على الأربعة حتى يديّننا أحد ونحتال على كل إنسان من أجل المال. مسكين ومعتّر هذا الإنسان لأنه غاطس بالشر ووسخ ولا يرى سوى هذه الوساخة من حوله، فهو لم تعد لديه سوى هذه الطريقة أي الوساخة، أصبح كالحيوان.

ذهب عند الخنازير وهذا حسب التعبير اليهودي، الذي يأكل لحم الخنزير أو يرعاهم ويكون قريب منهم أصبح دنس، مرفوض. ارتضى أن يعمل عند رجل وثني، يربي الخنازير ويمشي معهم ويأكل أكلهم، وهذا ما قيل في الإنجيل. أي عاد حيوان لأن الإنسان الذي يبتعد عن الله لا يعود إنسانا بل يصبح حيواناً. فيا أحبة، ماذا يريد القول ربنا بهذا المثل؟

بولس الرسول يقول: يا أخوة، كل شيء أعطي لكم، مباح، ولكن ليس كل شيء يوافق. أنا بإمكاني فعل كل شيء. بإمكاني أن أظل جالسا طول الوقت دون أن أفعل شيئا، ولكن إذا فعلت هذا، فيصبح الخراب في بيتي. إذا كنت كسلانة، أظل جالسة على الطاولة وآكل دون توقف، وفي الأخير أنتفخ. بإمكاني الجلوس والتلذذ بكتب موسيقى، بمناظر، أشاهد التلفزيون، وجالس ولكن هذا لا يوافق لأنه يوسخ لي قلبي وحياتي وأفكاري ويجعلني خنزير،

كلّني بالوسخ. لهذا السبب يقول الرب بفم بولس: أما الجسد فليس للزنى بل للرب والرب للجسد.

يا أخوة، عندما يقول الإنجيل بأن الأخ الأصغر أخذ ما يخصه وراح يبذّره، المقصود هو أن الله واهبنا عينان ويدان وعقل، أعطانا ما يخصه كالفكر وأرجل، قوة وصحة، هل هذه ندعها في بيت الله أو أننا نبذّرها في أمكنة أخرى حيث الخطيئة؟ أنت هل تستعمل يداك للبر، للقداسة أما للخطيئة؟ عيناك هل ترى فيها المناظر التي تمجد الله أما تستعملهم حتى تسيء لك ولغيرك؟ رجلاك هل تستعملهم لخدمة الله، إرادته ومشيئته أما تستعملهم حتى تسرق أخاك، تضربه وتركض للإساءة له.

إذاً هذا المال التي يقصده ربنا في هذا الإنجيل والنعم، يقول لنا بأننا نحن نملك هذه النعم، كل ما يملك الله، وهبني إياه. كل ما أملك من الله كيف استعمله. هذا هو السؤال. اكتشفنا كم أن الأخ الكبير أناني، لا يهمه أباه ولا أخاه. لا يفكر سوى بنفسه. الابن الصغير، ذهب إلى الخارج واكتشف بأن نظرة لأبيه، لله كانت تشبعه أما الآن فيأكل ولا يشبع. إذا صلّى أمام ربه، يشعر بالراحة. الآن مهما رقص، دبك، لعب بالقمار، مهما فعل فيجد حياته فارغة. تمنى أن يعود ويصبح أجير، خادم ببيت أبيه، لأن الخادم مرتاح وفرحان في هذا البيت.

الابن الأكبر، يقول له أباه يا ابني يا ابني. ولكن هذا الابن الأكبر، حقيقة هو يعيش كخادم عند أباه لأنه يحاسب أباه. إذا أصبحنا اليوم نحاسب بعضنا، المرأة تحاسب زوجها، تعلمون اليوم المرأة لديها حسابها الخاص في البنك والرجل لديه حسابه. هذا لأنه لم يعد هنالك عائلة. أصبح كل فرد من العائلة لديها حسابها الخاص. أين هي العائلة وأين هي المحبة، هؤلاء هم أجراء، خدام مثل أي خادم، لا يعرفوا لا المحبة ولا روح العائلة، لا وجود لحساب واحد للعائلة. بكلام أوضح، إذا كانوا يريدون الطلاق فيكون كل واحد منهم لديه ماله. إذن هم يبحثون عن طريقة الافتراق دون البحث في جميع البيت. عندما يتكلمون بالزواج المدني، كل إنسان لا شك بأنه حر، لكن سأطرح سؤالاً واحد لا ثانِ له، إذا أحبّ أحد الله ويعلم بأنه يبارك، ألا يتمنى أن يبارك له كل عمل يقوم به وكيف بالأخص الزواج؟ عندي رأي أو انطباع، لا أريد أن أدين أحد، معظم الذين يتزوجون مدني لأنهم يحرقون سلافنا، أما في المدني فبسهولة وبالاتفاق بيني وبينها.

الشيطان يقتل لهم حياتهم. يريدون الذهاب فليفعلوا. الآن يسافرون إلى آخر الدنيا، أصبحوا يتنزهون بالصين في هذه الأيام، ولكن لا يقول لي هذا بأنه يؤمن بالله ويحبه، هذا كاذب، بكل ما بالكلمة من معنى، فهو لا يحب الله، لكن لا ينافق عليّ، لأنه كاذب، لا يريد الله ولا يريد أحد، يريد نفسه، لأنه شرير وبذار الشر فيه. تأملوا بالموضوع، يمكن أن أكون على خطأ إنما أشك بهذا. هذا الابن الأكبر كان خادما لأنه يحاسب أباه. عندما رأى الاحتفال

والرقص والفرح، عوض مشاركتهم فرحتهم، زعل هذا المنحوس. تخيلوا أخ، أخاه راح، شرد، ضاع، ثم عاد، فيحزن بعودته. هذا النوع من البشر هم تنك. عوض أن يشكر الله وأن يبكي من الفرح، ومن شوقه إليه فهذا خرج من العائلة لأنه قال له هذا ابنك بدل من أخي.

المشكلة اليوم بهذا العالم، بالقرن الواحد والعشرين، أو الخطر الداهم علينا هو ليس الإرهاب أو غيره بل التوكل العائلي، والذي يجهل الاتحاد مع زوجته وعائلته، لا يكلمني عن وحدة وطن أو دنيا. هذا جلّيط علينا ويُكثر الكلام. إذا كنت لا تحب زوجتك وأولادك فلا تعتقد بأننا سنصدقك إذا تكلمت معنا بمحبة أكبر. أنت إنسان منافق من الطبقة الأولى، وتعتقد بأننا نصدق هذه الأمور. إذا سكتنا فنكون نصلي لك حتى تهتدي. صمتنا لا يعني الجهل بل معرفة عميقة. لهذا السبب كلنا خطأة.

يقول بولس الرسول: إننا جميعا تحت الخطيئة، في هذا العالم البار والخاطئ. من منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر. ولا أحد أفضل من الآخر. كما كُتب إنه ليس بار ولا واحد. كلنا بحاجة لرحمة ربنا. لا أحد يتكبر على الآخر، لأنكم إذا نظرتم بالأمور فستصبح رائحتكم جميعاً متشابهة، شيء مقرف والدود ينخر بالجسد. إذاً اتضعوا من الآن حتى ترتفعوا إلى المكان الذي جميعنا بالفعل من أعماقنا نشتهيه، هو أن نكون مع الله، ونضع رأسنا مثل يوحنا الحبيب على صدره ونرتاح، ونسكن إلى الأبد تلك السكينة ذات الطمأنينة والمحبة والبهجة الإلهية. آمين.